

The Treasure Sunday

لا تكنزوا لكم كنوزاً

بعد أن قدّم لنا السيّد المسيح الجوانب الثلاثة للعبادة المسيحيّة أراد توضيح غايتها، ألا وهي رفع القلب النقي إلى السماء، ليرى الله ويحيا في أحضانه، محذراً إيّانا ليس فقط من تحطيمها خلال "الأنا" وحب الظهور، وإنما أيضاً خلال "محبة المال" التي تفقد القلب المتعبّد حيويّته وحرّيته، إذ يقول السيّد: "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بلا اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون" [19-20].

من يتعبّد لله بقصد المجد الزمني الباطل يكون كمن جمع كنوزه على الأرض، سواء في شكل ثياب فاخرة يفسدها السوس، أو معادن تتعرّض للصدأ، أو أمور أخرى تكون مطمئناً للصوم. هكذا يرفع قلوبنا إلى السماء لننطلق بعبادتنا إلى حضن الأب السماوي، يتقبّلها في ابنه كسرّ فرح له وتقدّمة سرور، لا يقدر أن يقترب إليها سوس أو لصوم ولا أن يلحقها صدأ!

يقول القديس أغسطينوس: [إن كان القلب على الأرض، أي إن كان الإنسان في سلوكه يرغب في نفع أرضي، فكيف يمكنه أن ينتقى، مادام يتمرّغ في الأرض؟ أمّا إذا كان القلب في السماء فسيكون نقياً، لأن كل ما في السماء فهو نقي. فالأشياء تتلوّث بامتزاجها بالفضّة النقيّة، وفكرنا يتلوّث باشتهائه الأمور الأرضيّة رغم نقاوة الأرض وجمال تنسيقها في ذاته]. يُعلّق أيضاً القديس أغسطينوس على حديث السيّد: "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض"، قائلاً:

+لو أخبركم مهندس معماري أن منزلكم يسقط حالاً، أفلا تتحرّكون سريعاً قبل أن تتشغلوا

بالنحيب عليه؟! هوذا مؤسس العالم يخبركم باقتراب دمار العالم، أفلا تصدّقوه؟!... اسمعوا إلى صوت نبوّته: "السماء والأرض تزولان" (مت 24: 35... استمعوا إلى مشورته...! الله الذي أعطاكم المشورة لن يخدعكم، فإنكم لن تخسروا ما تتركونه، بل تجدوا ما قدّمتموه أمامكم... اعطوا الفقراء فيكون لكم كنز في السماء! لا تبقوا بلا كنز، بل امتلكوا في السماء بلا همّ ما تقتنونه على الأرض بقلق. أرسلوا أمتعتكم إلى السماء. إن مشورتي هي لحفظ كنوزكم وليس لفقدانها...

ينبغي علينا أن نضع في السماء ما نخسره الآن على الأرض. فالعدو يستطيع أن ينقب منازلنا، لكنّه هل يقدر أن يكسر باب السماء؟ إنه يقتل الحارس هنا، لكن هل يستطيع أن يقتل الله حافظها؟...

الفقراء ليسوا إلا حمّالين ينقلون أمتعتنا من الأرض إلى السماء. إذن فلتعطوهم ما لديكم فإنهم يحملونها إلى السماء... هل نسيتم القول: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت... لأنني جعت فأطعمتموني... وكل ما فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبني فعلتم" (مت 25: 34-40).
القديس أغسطينوس

بهذه الوصيّة يرفع الربّ عبادتنا للسماء، محذّرًا إيّانا من "المجد الباطل" ومقيمًا حراسًا عليها، ألا وهي أعمال الرحمة المملوءة حبًّا. فالصدقة الحقيقية بمعناها الواسع والتي تضم العطاء المادي والمعنوي، ترفع القلب بعيدًا عن الزمانيّات المعنويّة والماديّة، وتحوّل أرصدته في السماء.

ويرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن السيّد المسيح يحدثنا عن الحب والرحمة في دستوره الإلهي بطريقة تدريجيّة هكذا:

أولاً: قدّم لنا الرحمة كمبدأ عام نلتزم به .

ثانياً: طالبنا بمصالحتنا لخصمنا، فلا حاجة للدخول مع أحد في منازعات، وإنما الرحمة تغلب
(5: 23) – 26).

ثالثاً: ارتفع بنا إلى ما فوق القانون، فبالحب ليس فقط نترك ثوبنا لمن ليس له الحق فيه، وإنما
نقدّم معه رداءنا حتى نربح الخصم بحبنا .

رابعاً: سألنا ألا نكنز على الأرض، فلا نقدّم أعمال الرحمة للخصم والمضايقين لنا فحسب،
حتى لا ندخل معهم في نزاعات بل نكسبهم بالمحبة، فتكون طبيعتنا هي العطاء بسخاء،
كطبيعة داخلية تتبع عن حنين مستمر لنقل ممتلكاتنا إلى السماء .

إذ يقدم لنا السيد هذا التوجيه يُعلن جانبه الإيجابي ألا وهو أنه بالعطاء نحول كنزنا إلى فوق
في السماء، كما يوضح جانبه السلبي مهتداً أن ما نتركه هنا يفسد بطريق أو آخر فنفقدّه إلى
الأبد. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [أنه يجتذبهم، إذ لم يقل فقط إن قدمت الصدقة تحفظ
لك بل هدّد بأنك إن لم تعط غناك الخ. إنما تجمعها للسوس والصدأ واللصوص. وإن هربت
من هذه الشرور لن تهرب من عبودية قلبك له فيتسمّر بالكامل أسفل، لأنه حيث يكون كنزك
هناك يكون قلبك أيضاً. إذن فلنقم المخازن في السماء.]

البصيرة الداخلية

تحدّث عن القلب الذي يلتصق بالكنز ويجري وراءه، مطالباً إيّانا أن يكون مسيحنا هو كنزنا
عوض الكنز يحطّمه السوس والصدأ واللصوص، فيكون قلبنا على الدوام مرفوعاً إلى فوق
حيث المسيح جالس، لهذا يحدثنا عن "العين البسيطة" التي تجعل الجسد كلّه نيّراً. ما هي هذه
العين الداخلية إلا القلب الذي وحده يقدر أن يرى أسرار الكنز السماوي، فيجذب نحو
السماويات، ولا يتذبذب بين النور الأبدي ومحبة الفانيات .

"سراج الجسد هو العين،

فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كلّه يكون نيرًا،

وإن كانت عينك شريرة فجسدك كلّه يكون مظلمًا،

فإن كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام كم يكون؟! [22-23]

العين هي مرشد الجسد كلّه لينطلق إلى هنا أو هناك، فإن ارتفعت نحو السماء انطلق الإنسان كلّه بعبادته وسلوكه كما بأحاسيسه ومشاعره نحو السماويات، أمّا إن انحنت نحو الأرض لتصير أسيرة حب المجد الباطل أو رياء الفريسيين أو حب الغنى الزمني، لا يمكن للإنسان مهما قدّم من عبادات أن يرتفع إلى فوق. يشبّه القديس يوحنا الذهبي الفم العين بالقائد الذي إن سقط أسيرًا ماذا ينتفع الجند بالذهب؟ وربّان السفينة الذي إن بدأ يغرق ماذا تنتفع السفينة بالخيرات الكثيرة التي تملأها؟! حقًا كثيرون قد جمعوا ذهب الصداقة والصلاة والصوم وظنّوا أن سفينتهم مشحونة بالأعمال الصالحة، ولكن بسبب فساد قلوبهم وظلمة بصيرتهم الداخليّة يبقون بعيدًا عن الميناء الآمن وتغرق بكل ما تحمله! لهذا يفسر القديس أغسطينوس العين البسيطة بنية القلب الداخلي التي تقود كل تصرفاتنا، إذ يقول: [نفهم من هذه العبارة أن جميع أفعالنا تكون نقيّة ومرضية في نظر الله إن صنعناها بقلب بسيط، أي إن جميع أفعالنا تكون نقيّة ومرضية في نظر الله إن صنعناها بقلب بسيط، أي إن كان هدفنا فيها سماويًا، متطلّعين إلى تلك الغاية التي هي المحبّة، لأن "المحبّة هي تكميل الناموس" (رو 13: 10). من ثم فلنفهم "العين" هنا على أنها "النية التي نضع بها أفعالنا"، فإن كانت نيّتنا نقيّة وسليمة، أي ناظرين إلى السماويات، فستكون جميع أعمالنا صالحة، هذه التي لقبها الرب "جسدك كلّه"، لأنه عندما حدّثنا الرسول عن بعض أعمالنا القبيحة، دعاها أيضًا (أعضاء لنا)، إذ علّمنا أن نصلبها قائلًا: "فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض، الزنا النجاسة... الطمع" (كو 3: 5)، وما على شاكلة ذلك].

ويرى الأب موسى أن العين البسيطة تُشير إلى روح التمييز أو الحكمة، [لأنها هي التي تميّز كل الأفكار والأعمال، وترى كل شيء وتراقب ما سيحدث. فإن كانت عين الإنسان شريرة، أي غير محصّنة بصوت الحكمة والمعرفة، مخدوعة ببعض الأخطاء والعجرفة (في العبادة) فإنها تجعل جسدنا كلّهُ مظلمًا، أي يظلم كل نظرنا العقلي، وتصير أعمالنا في ظلام الرذيلة ودجى الإضرابات، إذ يقول: "فإن كان النور الذي فيك ظلامًا فالظلام كم يكون؟" [23]. فلا يستطيع أحد أن يشك في أنه متى كان "الحكم في الأمور" في القلب خاطئًا، أي متى كان القلب مملوء جهالة، تكون أفكارنا وأعمالنا - التي هي ثمرة التمييز والتأمل - في ظلام الخطيئة العُظمى].

إن كان "البسيط" هو عكس "المركّب أو المُعقّد"، فإن العين البسيطة إنّما هي التي لا تنظر في اتجاهين، ولا يكون لها أهداف متضاربة بل لها اتجاه واحد وهدف واحد... وكما يقول مار فيلوكسينوس: [لقد أعطانا ربنا مبدأً سهلاً في بشارته ألا وهو الإيمان الحق البسيط، بالبساطة ليست هي المعروفة في العالم بالبلادة والخرافة بل هي فكر واحد بسيط فريد].